من العراق إلى بلاد الواق واق

عينت سفيراً للعراق في اليابان في أواخر عام 2004م، ولم أكن قد زرت اليابان من قبل سوى وقفة قصيرة في مطار ناريتا الدولي في طريقي لزيارة سنغافورة وماليزيا منذ سنوات قبل ذلك، وكان مكوثي في المطار سويعات قليلة، إلا أنها مع قصرها، تركت في نفسي أشياء كثيرة أهمها مدى اهتمام اليابانيين بالنظافة. إضافة إلى ذلك، فقد كانت عندي معرفة ببعض صفات اليابانيين في أثناء عملي في المجال العلمي في الولايات المتحدة بسبب أن أحد زملائي في الدراسة العليا في الولايات المتحدة كان من اليابانيين، ثم إن بعض الشركات والعلماء اليابانيين أبدوا اهتماماً شديداً بالبحوث العلمية التي كنت أنشرها، وبعد ذلك من خلال تعاملي مع الشركات اليابانية التي كنا نتعاقد معها لتزويدنا بأجهزة السيطرة والقياس الدقيق في أثناء عملي في المجال الصناعي في الولايات المتحدة، حيث لفت انتباهي في أثناء التفاوض مع مختلف الشركات

obeikandl.com

العالمية اختلاف أسلوب التعامل مع الشركات اليابانية عن غيرها من الشركات الأمريكية والأوروبية الكثيرة التي تعاملت معها من خلال حياتي العملية، وهذا لا يعني طبعاً أن الشركات اليابانية كانت أفضل، بل المقصود هنا أن أسلوبهم في التعامل كان مختلفاً تماماً عن الآخرين. فعلى سبيل المثال كنت عندما أرسل مواصفات جهاز معين إلى شركات أمريكية ويابانية تعود الشركات اليابانية بعدد كبير من الأسئلة التي تدخل في تفاصيل بعضها ليس له علاقة مباشرة بالجهاز المطلوب وأدائه، لا بل إن بعضها تتعلق بأشياء لم أفكر فيها مطلقاً. بالمناسبة، فهذه الأجهزة متطورة وغير متوافرة، وإنما هي جديدة نريد تصنيعها لمواكبة تطور الصناعة سنوات قادمة. فعلى سبيل المثال، كانت الشركات اليابانية تسأل أحياناً عن لون الأجهزة المحيطة بالجهاز في المعمل، وكنت أتساءل يا ترى ما علاقة لون وشكل الأجهزة الأخرى بأداء الجهاز المطلوب؟ وفي كثير من الحالات، وإذا ما تمت الإجابة عن مجموعة الأسئلة الأولى وبعد جهد جهيد ربما تعود الشركة اليابانية بمجموعة أخرى من الأسئلة. هذا طبعاً، إضافة إلى كثير من الأسئلة الأخرى التي تتعلق بالجهاز وعمله. علماً بأن كثيراً من هذه الأسئلة لم ترد ببال أحد ناهيك عن السؤال عنها من أحد غير الشركات اليابانية. وإني رصدت ظاهرة أخرى جلبت انتباهي ألا وهي أن الشركات اليابانية كانت إذا ما وضعت الخطة لإنتاج الجهاز، وحددت موعد التسلّم، فمن

الصعب التفاوض معها حول تقديم الموعد، وبعبارة أخرى لا تبدي الشركات اليابانية أي مرونة في التسعير وموعد التسليم. أما إذا تم الاتفاق، فإن الشركات اليابانية كانت الأكثر التزاماً بالمواعيد والمواصفات، حيث كانت الأجهزة تصل دائماً، وهي مستوفية كل الشروط والمواصفات التي تم الاتفاق عليها عدا الكتالوجات التي كانت تصلني باللغة اليابانية من دون ترجمة، حتى أيقنت أن المواعيد والالتزامات عندهم كأنها مواثيق مقدسة لا نقاش فيها.

وبعدما وصلت إلى اليابان ذهلت بما شاهدت، ذلك أني كنت في كل يوم، بل في كل ساعة أتعلم شيئاً جديداً عن هذا الشعب. وكان الدرس الأول الذي تعلمته من صفات اليابانيين هو المعنى الأخير الذي تحدثت عنه سابقاً ألا وهو الدقة في الالتزام بالمواعيد والمواثيق، وكان مما تعلمت في أثناء تحضيري لمهمتي أن اليابان كانت الشريك الاقتصادي الأول للعراق في حقبة السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، وأن الشركات اليابانية الكبرى كان لها وجود كبير في العراق في أثناء تلك الحقبة، حتى وصلت أعداد اليابانيين العاملين في العراق إلى الآلاف. ولكن هذا كله انقطع فجأة بعد أن غزا ديكتاتور العراق الجارة الكويت، وأصدر مجلس الأمن قرارات المقاطعة. والأمر الغريب أن الشركات اليابانية كانت أكثر الشركات العالمية التزاماً بقرارات الأمم المتحدة لدرجة أن المهندسين العراقيين كانوا يكتبون للشركات اليابانية للسؤال حول

قضـايا تقنية تتعلق بالأجهزة اليابانية التي يعملون عليها، ولم تكن عن شـراء أجهزة جديدة. لكن الشركات اليابانية كانت لا ترد على الرسـائل حتى بالاعتذار؛ لأنها تعتقد أن مجرد إرسال رسائل الرد، ولـو كانـت بالاعتذار عن الإجابة تشـكل مخالفة لقـرارات مجلس الأمـن التي وافقت عليها اليابان، مع إدراك الشـركات اليابانية أن منافسيها يقومون بمخالفة القرارات الأممية.

هذه الملاحظات والظواهر تعمقت عندي طوال السنوات الأربع والنصـف التي قضـيتها في اليابان والتي كانت بمنزلة ورشـة عمل عمليـة تعلمـت فيها الكثير عن طبائع ذلك الشـعب الأصـيل، ولكن لا بـد علـيّ أن أعترف مقدماً بأني كلمـا ازددت قرباً من اليابانيين اكتشـفت أن مـا أجهله كان أكـبر بكثير مما أعلم. ولـن أطيل على القارئ الكريم بسـرد كثير من الأمثلة، وهي كثيرة بلا شك، ولكني سوف أكتفي ببعضها، فأذكر على سبيل المثال لا الحصر:

أولهـا عـن الالتزام الذاتي الـذي لاحظته عندمـا كنت أخرج للمشـي في شوارع الحي الذي أسكن فيه وسط طوكيو، وبسبب كثرة الارتباطات، فقد كنت أخرج في ساعات متأخرة، وتصادفني إشارة ضـوئية للمرور قرب البيت، فألاحظ أن المشـاة حتى في السـاعات المتأخرة من الليل وفي غياب السيارات لا يعبرون الشوارع إلا عندما تفتح الإشـارة الضـوئية، هذا ما يدلل على أن الالتزام بالإشـارات وقواعد السير يتم طوعيّاً وفي غياب الرقيب.

إن الالتزام بالنظم والقوانين ليس لفئة دون أخرى ولا لصغار القوم دون كبارهم، فالنظام يسري على الجميع. وأي قرار أو سياسة تتخذ يتم الالتزام بها من الجميع دون تمييز. وكان من أول الأمور التي جذبت انتباهي بعيد وصولي اليابان ضجة كبيرة أثيرت حول تصريحات نسبت للإمبراطور حول المناهج التعليمية أشار فيها إلى أنها ربما تثقل كاهل الطلاب، وتحملهم ما لا يطيقون، فقامت الدنيا، ولم تقعد بسبب تلك التصريحات، ذلك أن دستور اليابان في مرحلة ما بعد الحرب العالمية يجعل سلطة الإمبراطور رمزية، ولا تسمح له بالتدخل في شؤون الدولة، فكيف يصرح بتلك التصريحات. من أجل ذلك كان على سلطة القصر أن تصدر بياناً توضح فيه تصريحات الإمبراطور.

وبمناسبة الحديث عن الإمبراطور والإمبراطورة والعائلة المالكة الذين تشرفت بمعرفتهم عن قرب، فوجدتهم في غاية التواضع والأدب وسعة الاطلاع. وأذكر أن جلالة الإمبراطور عنده اهتمام بالتاريخ، وهو على إلمام واسع بتاريخ العالم، ومنه تاريخ العراق القديم، وخصوصاً السومري. وكانت صاحبة الجلالة الإمبراطورة تهتم كثيراً بمسألة القراءة في مرحلة الطفولة وعندها كثير من القصص قمنا أنا وزوجتي وداد، بالمساعدة على ترجمة واحدة منها إلى العربية هي (رحلتي الأولى إلى الجبل) حيث قامت قوات الدفاع الذاتي اليابانية بتوزيعه على الأطفال في مدينة

السماوة. وكانت صاحبة الجلالة تذكر لنا ذلك الصنيع، وتشكرنا دائماً عليه، وذلك من تواضعها الجمّ وأخلاقها الرفيعة. ومن نافلة القول، فإن الإمبراطور والعائلة المالكة في اليابان لا تمتلك أيّاً من أشكال الثروة، وكل ما لديهم هو ملك للدولة، حيث تخصص الحكومة ميزانية متواضعة للقصر الإمبراطوري معروفة للناس، وهي جزء من الموازنة التي يقرها البرلمان سنويّاً، وتشرف على صرفها هيئة القصر الإمبراطوري التي يرأسها رئيس الوزراء، في مقابل ذلك، فإن أعضاء العائلة المالكة ممنوعون من ممارسة التجارة أو امتلاك الأراضي، وما شاكل ذلك.

وكذلك لاحظت بأم عيني اهتمام الياباني بإتقان عمله والإبداع في ذلك. ففي مرة من المرات دعيت إلى حفلة شاي يابانية تقام بحسب التقاليد المتوارثة. وكانت السيدة التي تقوم بتحضير الشاي الأخضر تُعدّ من خبيرات إعداد الشاي، حيث درست عملية إعداد الشاي مدة أربعين سنة، ومع ذلك فهي لا تعتقد أنها وصلت إلى درجة الإتقان في ذلك الفن، وتواصل تطوير أدائها من خلال التجربة.

ومن أمثلة ذلك أذكر أنني دعيت من قبل السيدة كواغوتشي، وزيرة الخارجية السابقة، برفقة الصديق العزيز الأخ فيصل طراد سفير المملكة العربية السعودية في طوكيو مع زوجاتنا إلى حضور عرض خاص للعرائس في المسرح الوطني، وكان العرض يتكون من

دمى كبيرة يحرك كل واحدة منها ثلاثة أشخاص يغطون أجسامهم بملابس سوداء، حيث يقوم أحدهم بتحريك قدمي الدمية، وآخر بتحريك اليدين، والثالث يقوم بتحريك الرأس، وقد أُخبرت بأن الشخص الذي يقوم بتحريك القدمين يحتاج إلى تدريب مدة عشر سنين، فإذا ما أتقن الصنعة عشر سنين أخرى، فإنه يصبح مؤهلاً لتحريك اليدين، وبعد عشر سنين أخرى يكون مؤهلاً لتحريك الرأس.

هذه المشاهدات حول الإتقان لا تحتاج ملاحظتها إلى حضور حفل الشاي أو مسرح الدمى، وإنما تلاحظها في الشوارع والطرقات طريقة عمل عمال الطرق اليابانيين إذا ما قاموا لسبب أو آخر بإجراء إصلاحات في الطريق، فإن الطريق تعود بعد إصلاحها كما كانت قبل العمل، ولا يترك أي أثر، ولا تكاد تعرف مكان العمل إلا من لون الشارع، حيث تكون القطعة المعدلة بلون مختلف عن سابقتها. ولا أكتم القارئ الكريم سرّاً أن هذه الملاحظة كانت موضع إعجابي؛ لكوني مهندساً، لدرجة أني قمت بتلمسها بيدي وفحصها بنفسي في أثناء تجوالي وفي مناطق مختلفة من المدينة، حيث أثارت الإعجاب في نفسي والحسرة في آن واحد؛ لأننا نفتقد هذه الصفات الحميدة عند العاملين في بلادنا مع أن ديننا يحثنا على إتقان العمل، ويجعل هذه الصفة من الصفات التي يحبها الله تعالى في عباده: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**».

ومما جذب انتباهي من صفاتهم أيضاً احترامهم للمهنة التي يعملون فيها بغض النظر عن طبيعتها. فالذين يقومون بجمع القمامة في اليابان رجال يلبسون الزي الرسمي الذي هو في غاية النظافة، ويرتدون القفازات البيضاء النظيفة، ويحملون لقب (مهندس النظافة). فالشخص الذي يجمع القمامة أو شرطي المرور أو المدير أو الرئيس كل يبذل قصارى جهده في إتقان عمله، ولا يتدخل إنسان في عمل غيره. ولا ينظر أحد نظرة استعلاء على عمل الآخر؛ لأن العمل مهم ومقدس مهما كان، وإن المسؤولية في اليابان تعني حقيقة المسؤولية، وليست لقباً فارغاً. فالرئيس هو المسؤول عن شؤون المؤسسة، فإذا ما حصل إهمال في العمل من أيٍّ كان يصبح الواجب الوحيد أمامه هو قبول المسؤولية والاعتذار بالانحناء أمام الناس وتقديم الاستقالة فوراً؛ لأن موظفاً عنده قصر في واجبه، وهذه الصفة تسري على الجميع من رئيس الوزراء، حتى العامل البسيط.

وبالمناسبة، فإن معنى الرئيس لا يفهم منها في اليابان أنه الشخص الذي يقرر في جميع الأمور، فالرئيس في اليابان ليس الذي يتخذ القرارات؛ لأنها عندهم تتخذ من قبل المؤسسة، وهي تبدأ في أدنى المستويات الإدارية، وتصعد إلى أعلاها. وهذه القضية، وأقصد بها طريقة اتخاذ القرار واحدة من القضايا التي كثيراً ما أحدثت لبساً عند الزوار العرب الذين يلتقون المسؤولين اليابانيين، خصوصاً عندما يقوم الزائر بإسماعهم كلاماً كثيراً فيه كثير من

المطالب الذي يقابل من المسؤول الياباني بهز الرأس مع التبسم، ذلك أن هزة الرأس عندنا تعني الموافقة على ما قيل، ولكنها عند اليابانيين تعني (لقد استمعت لما قلت، وسوف أقوم بنقله) والسبب لأن القرار يتخذ في اليابان بحسب عملية محددة تأخذ في الحسبان كل الجوانب، ولا يتخذ القرار إلا بعد دراسة مستفيضة، وربما أعيدت الدراسات مرات عدة؛ للتأكد من صحتها قبل أن تعتمد، ذلك أنهم يبذلون قصارى جهدهم في عدم ترك مجال للخطأ. أما من جهتنا فيخرج المسؤول من الاجتماع مسروراً؛ لأنه استطاع أن يقنع المسؤول الياباني برأيه. ولقد أدركت هذا المعنى لأني كنت أبادر بسؤال المسؤولين عن انطباعاتهم، وأوضح لهم بعدها أن المسؤول الياباني قد استمع لما قلتم، وسوف يعود بالجواب، وأنه غير مفوض باتخاذ القرار. ومن نافلة القول: إن الياباني ليس من طبعه أن يقول: (لا) أو يرد بالنفي على أي طلب، فهذه أمور لا تسمعها هناك. بل يكتفي بعدم الاستجابة، عندما تكون الإجابة بالرفض؛ لأن الياباني يشعر بالتواضع، فلا يفترض في نفسه القدرة على قول كلمة: (لا)، واللبيب بالإشارة يفهم.

هذا الحديث عن المؤسسات وأساليب العمل المؤسسي التي جذبت انتباهي في اليابان والتي كان منها أسلوب التعامل مع المعلومات. حيث إننا في عالمنا العربي نعاني تكدس المعلومات عند نقاط معينة، بحيث يصبح كل عامل في المؤسسة نقطة اختناق

للمعلومات التي تصل إلى أي فرد في المؤسسة، وتنتهي عنده. ومثال على أسلوب اليابانيين في التعامل مع المعلومة، أذكر أنني كنت في دعوة عشاء عمل برفقة مسؤول كبير، حيث يقابلنا خمسة مسؤولين يابانيين، وفي أثناء تناول الطعام وبعد انتهاء كلمات الترحيب دخل القاعة شخص، وانحنى، وقدم ورقة إلى الشخص الذي يجلس آخر الطاولة، وكان مسؤولاً في الخارجية والذي بدوره قرأ الورقة، وقدمها لرئيس الدائرة الذي قرأها، وقدمها لوكيل الوزارة الذي قدمها لرئيس الوفد الذي قرأها، وبعد مدة تأمل ذكر أن الإذاعة العراقية قد أعلنت قبل عشرين دقيقة أن نتيجة التصويت على مسودة الدستور العراقي قد أعلنت وأن الدستور قد أقره الناخب العراقي. والذي جذب انتباهي هو مدة العشرين دقيقة التي تم فيها إبلاغ المسؤول بالنتيجة، وكان خارج الدائرة وخارج أوقات الدوام الرسمي، ترى لو كان في الدائرة وفي أثناء الدوام ترى كم ستأخذ المعلومة من وقت لكي تصل إليه؟ ولك عزيزي القارئ، أن تتخيل كم أخذت المعلومة من وقت لتصل إلي بالطرق الرسمية.

من الأمور الجلية التي تلفت انتباه الزائر للوهلة الأولى اهتمام الياباني بالقراءة، فهو يقرأ في كل لحظة أو فرصة، وأحياناً حتى عندما يكون واقفاً في القطار إذا ما وجد الفسحة من المكان لكي يرفع الكتاب بيده. ومن أروع الأدلة على اهتمام الشعب الياباني

بالقراءة عدد الصحف التي تطبع هناك، حيث إن الصحيفة الأولى عالميّاً من حيث عدد النسخ المطبوعة هي صحيفة (اليوميوري) اليابانية التي تطبع أكثر من 14 مليون نسخة في اليوم، وتليها في الترتيب ثلاث صحف يابانية أخرى تمثل الصحف الأربعة الأعلى توزيعاً في العالم، ولكي أضع القارئ في صورة هذه الأرقام وحجمها، فإن صحيفة (نيويورك تايمز) تطبع مليوناً ومئة وخمسين ألف نسخة في اليوم. إضافة إلى الأربعة الأولى هناك 12 صحيفة يابانية أخرى موجودة في قائمة المئة، وبذلك يكون عدد الصحف اليابانية في القائمة 16 صحيفة تطبع نحو 58 مليون نسخة يوميّاً تشكل نسبة 40% من مجموع النسخ التي تطبعها المئة صحيفة. فإذا علمنا أن سكان اليابان نحو 127 مليون نسمة، فلا نحتاج إلى الحاسب الآلي لكي نصل إلى أن هذه الصحف تطبع بمعدل نسخة لكل شخصين. طبعاً هذا إضافة إلى المئات من الصحف المحلية التي لم تذكر في القائمة. وللمقارنة أذكر أن صحيفتين عربيتين فقط في القائمة، وهما الأهرام والجمهورية من مصر، حيث تطبعان 900 و800 ألف نسخة يوميّاً، على التوالي، وهذا يمثل 1% من عدد النسخ التي تطبعها المئة صحيفة عالميّاً. وأنا هنا أسجل شكري لهاتين الصحيفتين؛ لتمثيلهما العرب في هذه القائمة المهمة، ومع ذلك، فلا بد أن نذكر هنا أن عدد سكان مصر نحو 83 مليون نسمة، وبذلك تكون النسبة نسخة لكل أكثر من خمسين مواطناً. طبعاً المقارنة غير

عادلة؛ لأن نسخاً عدة من الصحف المصرية تباع في العالم العربي خارج مصر، ولكن يندر بيع الصحف اليابانية خارج اليابان.

ملاحظة أخرى من خلال معايشتي هناك في اليابان، أذكر مرة أني دُعيت لزيارة مؤسسة خيرية في قرية من القرى جنوب غرب اليابان، وكان من سكرتيرتي أن طلبت من المؤسسة المضيفة إضافة وقت استراحة قصيرة في البرنامج مدة عشرين دقيقة بعد الغداء؛ لكي أتمكن من أداء الصلاة. لقد كان السبب في إضافة تلك الفقرة إلى البرنامج أن الوقت ثمين عند اليابانيين، فهم لا يتركون فيه مجالاً ولو دقائق قليلة، ولذلك كان لا بد من إخبارهم مسبقاً. وبالفعل، فقد تم إضافة فقرة الصلاة لبرنامج الزيارة. ولم يكن هذا هو المهم، ولكن الذي حدث أنهم أعدوا غرفة خاصة، وبحثوا في الإنترنت عن مواقيت الصلاة وعن اتجاه القبلة في مدينتهم، ووضعوا حصيرة صغيرة موجهة في اتجاه القبلة، ووضعوا أمام باب الغرفة نعالاً للوضوء علماً بأنه لا يوجد في تلك القرية أو ما جاورها مسلم على ما أعلم. ولقد تكررت هذه الحادثة مرة ثانية، عندما دعينا من قبل قيادة القوات الجوية اليابانية لحضور حفل استقبال الجنود اليابانيين العائدين من العراق والكويت، وكنت وقتها بصحبة سعادة السفير الكويتي في اليابان الأخ العزيز عبدالرحمن العتيبة، وقد أعدوا لنا غرفة خاصة للصلاة، وفرشوا فيها السجاد الموجه في اتجاه القبلة مع وضع البوصلة التي تبين اتجاه القبلة.

وإني خلال إقامتي اطلعت على مقدار الدمار الذي أصاب اليابان في الحرب العالمية الثانية، وكيف أن أغلب المدن اليابانية الكبيرة قد أصابها الكثير من الدمار وخصوصاً طوكيو العاصمة والمعاناة الشديدة التي ألمّت بأهل اليابان في أثناء الحرب وبعدها، حتى إن أحد المعمرين ذكر لي أكثر من مرة معاناته واليابانيون مثله في تلك المدة، حينما كان يعمل في أحد المصانع، وكانت تقدم لهم وجبة واحدة في اليوم عبارة عن حبات عدة من الفاصوليا لا غير، حتى إنه كان يعدّها يوميّاً، وأكد لي أن عددها لم يتغير طوال تلك المدة، ويقول: ما إن تنتهي ساعات الدوام الطويلة جدّاً حتى نهرب إلى الغابات، ونبحث فيها عن أي شيء نأكله، ويقول: لم نكن نترك شيئاً يمكن أن يؤكل إلا أكلناه، حتى ورق الشجر وجذوعه. إضافة إلى أن السيد جونيتشرو كوئيزومي رئيس الوزراء الياباني الأسبق كان يذكر الوفود الكثيرة من العراق التي كانت تزور اليابان بهذه الملاحظة، وكان يستشهد بكتاب وثائقي مصور يوثق لبعض المناطق من طوكيو، ويوضح الخراب الذي أصابها بعد الحرب، وكيف تمت عملية إعادة الإعمار، ويدعونا إلى التمعّن في هذه الأمثلة وأخذ العبر منها.

والعجيب أنه بعد هذه المعاناة استطاع الشعب الياباني أن يعيد بناء بلاده، بل أن يجعل منها في مدة قياسية قوة اقتصادية لا

يستهان بها، حتى إن الاقتصاد الياباني فاق اقتصاديات كل الدول التي انتصرت على اليابان في الحرب العالمية الثانية باستثناء الولايات المتحدة. والعجيب أن اليابان استطاعت أن تحقق مثل هذا التقدم، وأن تحافظ على موروثها التراثي من دون الانغماس الكلي في بوتقة الاستغراب. فكيف استطاعت ذلك؟ وكيف تمكنت من أن تعيد بناء نفسها بهذه السرعة الفائقة التي جعلت البعض يصف تلك التجربة بالمعجزة اليابانية؟ وما الصفات التي ساعدت اليابان على النجاح وعدم الخضوع لليأس مع توافر كل الدواعي التي يمكن أن تحول بالإنسان إلى اليأس؟ إننا مع إقرارنا بخصوصية بعض الجوانب من التجربة اليابانية، إلا أن ذلك لا يمنع من الاستفادة منها؛ لكونها تجربة إنسانية رائدة في جوانب عدة. فما الدروس والعبر التي يمكن أن نستفيد منها في إعمار بلادنا؟

حاولت خلال وجودي في اليابان أن أشاهد، وأن أسأل، وأن أقرأ، وأتابع لمحاولة معرفة الإجابة عن هذه التساؤلات. فتوصلت إلى أن الإجابة أولاً ليست بالسهلة وأنها إنما تتطلب فهماً لشخصية الإنسان الياباني وتاريخه، وهي التي تعرف بالأخلاق اليابانية أو الشخصية اليابانية التي هي مصدر القوة في تلك الأمة. وإن كثيراً من الجذور الأخلاقية إنما هي انعكاس لطبيعة الأرض الوعرة الصخرية المحدودة التي فرضت على الياباني أن يتكيف مع وعورة الأرض وصعوبتها، وإن قلة الأرض الصالحة للزراعة جعلت

الياباني يعيش حياة التقشف والزهد في الكماليات، وأن يتوجه نحو التصنيع بوصفه مصدراً للمعاش، وإن قلة المصادر الطبيعية جعلت حاجة اليابان تتوجه بالنظر إلى خارج اليابان؛ لأنها لا يمكن أن تكتفي ذاتيّاً. ولذلك ابتدأت بدراسة الأرض والتضاريس وآثارها المباشرة وغير المباشرة في بناء الشخصية اليابانية، ثم وجدت أن عملية البناء لم تكن وليدة حقبة ما بعد الحرب، إنما تمتد جذورها إلى حركة التغيير اليابانية التي أطاحت بحكم الإقطاع، ووحدت اليابان، وأسست لبناء الدولة المؤسساتية الحديثة تحت حكم الإمبراطور ميجي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وبعد المزيد من الدراسة وجدت أن الأمر يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك، وأن الخصائص والصفات التي قامت عليها الحركة التغيرية التي جاءت بالإمبراطور إنما هي انعكاس لشخصية الفارس الياباني (الساموراي) وأن أسس هذه الشخصية قد ترسخت، وأُسّست في حقبة حكم الإقطاع، وأن هذه الصفات تم نشرها وتعميمها من خلال المدارس الشعبية آنذاك التي كانت تسمى التراكويا. وإن هذه الصفات إنما هي انعكاس للتراث الديني والفلسفي المتمثل في الأفكار والمبادئ الشنتوية والكونفوشية. ولذلك حاولت أن أعرج ولو بشكل سريع على هذه الجوانب من الشخصية اليابانية، وكيف انعكست هذه الأفكار في تغيير واقع الناس على مر العصور، ومنها مرحلة اليابان الحديثة.

وأخيراً، جاءت المأساة الأخيرة المتمثلة في النكبة التي تسببت فيها اثنتان من أكبر الكوارث الطبيعية التي عرفتها اليابان في تاريخها، وهما الزلزال الكبير الذي ضرب شمال شرق جزيرة هوانشو أكبر الجزر اليابانية مقابل مدينة سانداي الجميلة والذي تسبب في حصول أكبر تسونامي تمثل في أمواج ضربت الساحل بلغ ارتفاعها أكثر من عشرة أمتار، وحصد أكثر من عشرين ألف نفس وخسائر مادية قدرت بمئات المليارات من الدولارات، ولعل أسوأ ما نتج عن التسونامي واحدة من أكبر الكوارث البيئية التي نتجت بسبب الدمار الذي أصاب مجمعاً من أربعة مفاعلات نووية الذي تسبب في انتشار الإشعاع النووي في المناطق المحيطة بالمفاعلات. هذه المناطق سبق أن زرتها مرات عدة، وغمرني أهلها بحسن الاستقبال والضيافة. والذي لفت انتباه الناس حول العالم هو الأسلوب الذي تعامل به اليابانيون مع الكوارث، فلم نشهد عمليات نهب أو سلب، كما حصل في أماكن أخرى ربما أصيبت بأقل مما أصيبت به اليابان، ولم نشهد حوادث احتجاج أو صراخ أو عويل من قبل المواطنين على الرغم من فداحة ما أصابهم، ولكن على العكس كنا نلاحظ التزاماً شديداً بالنظام في أحلك الظروف، ومن أدلة ذلك مشاهدة الناس يقفون في طوابير طويلة في انتظار حصتهم من الطعام والشراب من دون أن يحاول أحد منهم تجاوز الآخر، مع أن الطوابير كانت طويلة جدّاً، ولم يكن هناك مراقبون أو

شرطة يأمرون الناس بالوقوف في الطوابير وعدم مخالفة الأوامر، بل كان الالتزام طوعيّاً من الجميع. هذه التربية والبناء الفردي والتعبئة الاجتماعية التي تظهر آثارها جلية في مثل هذه الظروف الصعبة هي التي بنت اليابان سابقاً، وهي التي سوف تنهض لبناء المناطق المنكوبة، ولسوف تمنح البشرية من جديد دروساً في البناء وإعادة الإعمار والارتقاء فوق الجراحات. دروس نحن اليوم في أمس الحاجة إليها ربما أكثر من حاجتنا لمنتجات اليابان الأخرى. والفصول القادمة عبارة عن جولة في التاريخ والجغرافيا والعوامل التي ساعدت على بناء هذه النفوس، وأعدتها هذا الإعداد الفريد.

obeikandl.com